

التعددية اللغوية في لبنان وابعادها التربوية

د. قاسم شعبان

I مقدمة

إنّ نعت الوضع اللغوي في لبنان بصفة التعددية قد يظهر للوهلة الأولى وكأنه يقتقد الدقة المتوخاة في البحث العلمي، خصوصاً أنّ مفهوم «التعددية» يكثر الحديث عنه في مضامين متعددة ومتنوعة في لبنان ما بعد حرب السنتين. وقد يتساءل البعض عن مطابقة الوصف للواقع إذا ما قارنّا عدد اللغات المستعملة في لبنان بعددها في البلدان التي توصف عادة بالتعددية اللغوية، كالكثير من بلدان أفريقيا، والاتحاد السوفياتي، والهند. لكنّ هذه التساؤلات تنتفي إذا ما حللنا الوضع اللغوي في لبنان بتشعباته وأبعاده المختلفة، كتعدّد اللهجات العربية المحكية والمسموعة فوق الأرض اللبنانية من جهة، والدور المهم الذي تقوم به لغات الأقليات واللغات الأجنبية في حياة البلاد الثقافية والتربوية.

نشأت التعددية في لبنان نتيجة تعدّد الطوائف فيه، وتطلع كل من هذه الطوائف إلى إقامة علاقات مع بلدان عربية وأجنبية بغية الحفاظ على كياناتها ومصالحها، وذلك خلال الحكم الأجنبي، سواء تمثل ذلك بالحكم التركي أم بالانتداب الفرنسي. ولم تكن هذه التطلعات والعلائق سياسية فقط، وإنّما تعدّتها إلى إقامة الوشائج الثقافية والفكرية واللغوية والتجارية أيضاً. ثم جاء بعض الأرمن إلى لبنان بعد تهجيرهم من بلادهم، وجاء بعض الأكراد طلباً للرزق، وأخيراً جاء بعض الفلسطينيين بعد الاحتلال الصهيوني لفلسطين وطرد أهلها. كما جاء إلى لبنان الكثير من أبناء الدول العربية الأخرى. وهكذا أضحت لبنان ملتقى لحضارات الشرق والغرب، ومركزاً ثقافياً وحضارياً انعكست فوق أرضه قوة الشرق العربي وضعفه، سواء

كان ذلك نتيجة لما يعتمل به لبنان والعالم العربي من الداخل أم نتيجة للتيارات الآتية من الخارج . ولم تُفلح حكومات الاستقلال التي تعاقبت على لبنان في خلق كيان صحيح تدوب فيه الفوارق كلها بين أبناء الفئات المختلفة ، رغم محاولات عديدة ، وفي مختلف الميادين ، لم تكَلل بالنجاح . فاعتماد اللغة العربية كلغة البلاد الرسمية لم يقلل من دور اللغات الأجنبية التي عظم دورها وزاد انتشارها كما سنرى لاحقاً . وخلق مجلس الخدمة المدنية لم يمنع توزيع المراكز والوظائف في الدولة على أساس التوزيع الطائفي لا الكفاءة . وهكذا ، فإنّ صراعات الهوية القومية والوطنية ، والتمدن أو مواكبة العصر ، والتمسك بالتراث والتقاليد ، واعتماد الأساليب التربوية الأصيلة أو المستوردة ، ظلت جزءاً لا يتجزأ من حياة لبنان ما بعد الاستقلال . وللأسف اتخذت هذه الصراعات في كثير من الأحيان منحىً عنيفاً كما حدث عام ١٩٥٨ ، وفي حرب السنتين (١٩٧٥ - ١٩٧٦) التي في الواقع لم تنته بعد . إنّ العنف الذي رافق ويرافق عملية تطوّر الكيان اللبناني يُظهر مدى هشاشة هذه التركيبة للمجتمع اللبناني . وفي هذه الدراسة التي تركز على الجانب اللغوي - التربوي من الحياة اللبنانية سنظهر بالتفصيل كيف أنّ تركيبة البلد الاجتماعية والطائفية والعرقية والسياسية والاقتصادية أنتجت وضعاً لغوياً فريداً نعت بالمتعدّد والمتنوّع والمنفتح والمتسامح ، دون وجود ما يبرّر هذه النعوت .

سنعمد في هذا البحث إلى وصف الهيكلية اللغوية في لبنان ، عارضين بالتفصيل وضع اللغة العربية الفصحى واللهجات المحكية ، ووضع لغات الأقليات الأرمنية والكردية ، ووضع اللغتين الفرنسية والإنكليزية . كما سنلجأ إلى تحليل دور هذه التعددية اللغوية في التربية والتعليم ، وفي ميادين أخرى في المجتمع اللبناني . وسيتضمّن البحث أيضاً تحليل التغييرات الحاصلة في التركيبة اللغوية ، وفي اتجاهات ومشاعر وميول اللبنانيين اللغوية ، وانعكاسات ذلك كله على الوضع اللغوي في لبنان^(١) .

II التركيبة اللغوية

إذا ما قيسَت أهمية اللغة في حياة المجتمع بعدد الناطقين بها ، فإن اللغة العربية هي بدون شك اللغة الرئيسة الأولى في لبنان . ونعني بالعربية هنا اللغة بوجهيها ، الفصحى والعامي ؛ فالعربية قاسم مشترك بين اللبنانيين مهما تنوعت أصولهم وتطلعاتهم ، فهي بوجهها المحكي لغة التخاطب بينهم ، وبوجهها الفصحى لغة التعليم الأساسية في مدارسهم . وتأتي اللغة الفرنسية في المحل الثاني من حيث الأهمية ، وتُعتبر لغة رئيسة لكونها لا تزال تعتبر كلغة رسمية إلى جانب العربية في دوائر الدولة اللبنانية . زد إلى ذلك أنّ الفرنسية تستعمل إلى جانب العربية كلغة تخاطب بين الكثير من اللبنانيين . ثم تأتي اللغة الإنكليزية التي يمكن اعتبارها لغة رئيسة من حيث العدد المتزايد للذين يستعملونها كلغة تجارة وتخابر . وبالطبع علينا في هذا المجال أن نذكر أنّ استعمال الفرنسية والإنكليزية كلغات ثانية في المدارس ، وكلغات أساسية لتدريس الرياضيات والطبقيات في ما بعد المرحلة الابتدائية يركّز دورها وأهميتها كلغتين رئيسيتين في المجتمع اللبناني .

إلى جانب اللغات الثلاث الرئيسية التي ذكرت أعلاه، هناك اللغة الأرمنية التي لم نضعها في مصاف تلك اللغات، على أساس مبدأ عدد المتكلمين بها؛ فاللغة الأرمنية لا يتكلمها سوى اللبنانيين المتحدرين من أصل أرمني، وبالتالي فهي تستعمل للتدريس في المدارس الأرمنية فقط. وهناك أيضاً اللغة الكردية التي يتكلمها أبناء الأقلية الكردية، وهي لا تستعمل في أية مدارس.

نتنقل الآن إلى دراسة هذه التركيبة اللغوية بالتفصيل، متناولين بالبحث والتحليل وجهي اللغة العربية، الفصحى والعامي، والدور المتعاظم للغات الأجنبية، وأثر ذلك كله على البنية التعليمية في لبنان.

١ - اللغة العربية

كان الاعتقاد السائد في أوساط اللغويين، وخصوصاً بعد دراسة شارلز فرغسون المعروفة بـ «ازدواجية اللغة»، أن الفصحى والعامية تستعملان لوظائف مختلفة في حياة الشعوب؛ فالفصحى (التي أسماها فرغسون اللغة العالية) هي لغة التدريس والخطب والمواقف الرسمية، أما العامية (التي أسماها اللغة الأدنى) فهي لغة التخاطب والمواقف غير الرسمية^(٢). لكنّ هذا الوضع بدأ يتغيّر، ولم يعد هناك تحديد في الوظائف اللغوية؛ فميدان الخطابة لم يعد وقفاً على الفصحى، والتحدث - وخصوصاً بين المثقّفين - لم يعد يجري بالعامية فقط. وهناك أمثلة أخرى كثيرة تدلّ على أنّ الفصل القطعي بين وظائف العامية والفصحى لم يعد ممثلاً للواقع اللغوي في لبنان أو في أي بلد عربي آخر.

أ) الفصحى: هناك وجهان رئيسان للغة العربية الفصحى، وهما: الفصحى الكلاسيكية (وتتمثّل بلغة القرآن والأدب والشعر الجاهلي والأموي والعباسي)، والفصحى الحديثة (وتتمثّل بلغة الكتب والجرائد والإذاعات والأدب الحديث)^(٣). والفرق بين هذين الوجهين يكمن في اعتماد الفصحى الحديثة على المفردات والتعابير التي دخلت إلى العربية كما هي في حالة المفردات، ومترجمة حرفياً في حالة التعابير.

لا يخفى على المطلّع على حال اللغة العربية اليوم أن أبناءها - وخصوصاً تلامذة المدارس - لم يعودوا يتعلّمونها على أصولها؛ فكثيراً ما يسمع المرء من المربّين شكاوى عن ركافة اللغة العربية لدى التلامذة والخطباء والمذيعين في الراديو والتلفزيون، وخصوصاً في نواحي الإعراب. ويعزو المربون والمثقفون العرب، ومن بينهم طه حسين، أسباب هذا الضعف إلى عدم كفاءة المدرسين، وعدم تمكّنها من اللغة؛ مما يجعلهم يلجأون إلى اللهجات العامية للشروحات والتعليقات في مختلف الموادّ الدراسية^(٤). وباعتقادي أنه ليس من المفيد في هذه المرحلة إجبار هؤلاء المدرّسين على استعمال اللغة الفصحى طوال الوقت؛ لأنّ ذلك يقلّل من فاعليتهم؛ إذ يتوزع انتباههم بين التركيز على لغتهم والتركيز على محتوى موادّ التدريس.

هذا الوضع الصعب الذي تمرّ فيه اللغة العربية دفع بالكثيرين إلى الدعوة إلى التخلّي عن الفصحى كلفة للتدريس، واعتماد اللهجات المحكية محلها، من منطلق الحرص على تلقين الأطفال العلم باللغة التي يفهمونها

ويتكلمونها. ولسنا في هذا البحث بصدد التفتيش عن الدوافع الحقيقية لدعوات كهذه تتردد أصدائها في المشرق والمغرب العربي على السواء، إنما هدفنا هنا تبيان عقم هذه الآراء والمغالطات التي تستند إليها. وفي الجزء التالي عن العامية سنقدم الحجج ضد اعتماد اللهجات للتدريس في المدارس العربية، وسنركز على حيوية اللغة العربية الفصحى وغناها التعبيري. فإلى جانب كون اللغة العربية عاملاً توحيدياً بين العرب مهما تباعدت أماكن وجودهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية، تبقى الفصحى لغة غنية لها تراثها الأدبي والعلمي، وهي لغة أظهرت قوتها وحيويتها باستمرارها عبر القرون، رغم محاولات الكثيرين طمس حضارتها ووجودها. ومن سخرية الأمور أن الذين يهاجون الفصحى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة قد أنتجوا فيها عملاً أفضل بكثير من كتاباتهم بالعامية؛ فكتابات سعيد عقل ويوسف الخال بالعامية اللبنانية لا تستحق الذكر من ناحية النوعية والغنى التعبيري إذا ما قورنت مع كتاباتهم بالفصحى.

إنه لحريّ بالمفكرين العرب أن يجدوا في البحث عن وسائل تقوية الفصحى وتدعيم وتسهيل طرق تعليمها، بدل أن يحاولوا إيجاد البدائل لها قبل اكتشاف مواضع ضعفها والعمل على معالجتها. وفي الجزء الأخير من هذا البحث سنقدم خطة مفصلة تهدف إلى جعل اللغة العربية الفصحى لغة سهلة التداول وقرينة من عقول أبنائها وأقنعتهم.

ب) العامية: مع أنه يمكننا الكلام عن لهجة لبنانية - سورية تختلف عن اللهجات العربية الأخرى في بعض أوجه التركيب الصوقي والمفردات، إلا أنه يمكننا أن نجزم بأن ليس هناك لهجة لبنانية واحدة كوجود لغة عربية فصحى واحدة تستعمل في المدارس اللبنانية؛ فهناك عوامل عدة تتداخل في تعريف اللهجة اللبنانية وتحديدتها تدفعنا إلى التحدث عن عدة لهجات لبنانية. ومن العوامل اللغوية - الاجتماعية التي تتسبب في خلق لهجات لبنانية تتسم باختلافات في النظم الصوتية والمفردات العوامل الجغرافية؛ فلهجة أبناء الجنوب تختلف عن لهجة أبناء البقاع، ولهجة أبناء الشمال تختلف عن لهجة أبناء بيروت، ولهجة جبل لبنان تختلف عن اللهجات الأخرى جميعها، وما إلى ذلك. كما يمكننا الحديث في هذا النطاق عن العوامل الفئوية؛ فلهجة أبناء بيروت الغربية تختلف عن لهجة أبناء بيروت الشرقية، ولهجة دروز الجبل تختلف عن لهجة موارنته رغم وجودهم في محيط كلامي واحد، أي بيروت والجبل تبعاً. زد إلى ذلك وجود تنوع من نوع آخر سببه التأثير باللغة الأم (كما هي الحال مع الأرمن والآكراد)، أو التأثير بلغة أجنبية (كما هي الحال مع الذين يتكلمون بالفرنسية معظم الوقت). وأخيراً يمكننا الحديث عن تنوع اللهجات تبعاً لتنوع المستوى الاقتصادي والثقافي.

إلى جانب اللهجة اللبنانية هناك لهجات عربية أخرى تُسمع ويتكلمها الكثيرون فوق الأرض اللبنانية، ونخصّ بالذكر هنا اللهجتين الفلسطينية والسورية، وما يتفرع منهما من لهجات، عملت على إبرازها العوامل

التي تحدّثنا عنها سابقاً بالنسبة لهجة اللبنانية. إنّ هاتين اللهجتين أصبحتا عوامل مؤثرة في اللهجة اللبنانية، إذ تتفاعل معها منذ زمن بعيد ولا تزالان. ويمكننا الكلام في هذا السياق عن لهجات البدو واللهجات المصرية التي تثبت حضورها من خلال وسائل الإعلام، وخصوصاً التلفزيون بمسلسلاته وأفلامه الناطقة بهذه اللهجات.

أمام هذا الوضع المتشعب المتداخل للهجة اللبنانية، لا يسعنا إلا أن نتساءل عن جدّية الدعوات إلى اعتمادها لغة تدريس أساسية في المدارس اللبنانية. فأية لهجة ستعتمد أهي لهجة بيروت أو لهجة الجبال؟ وإذا كان الجواب، مثلاً، لهجة بيروت، فأية لهجة في بيروت؟ وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار عدم وجود كتابات أدبية وكتابات أخرى في العامية غير الأدب الشعبي المتداول عادة شفاهياً كالزجل، لتبيّن لنا أن لا فائدة من محاولة خلق شيء من القليل، إن لم نقل من العدم، بينما في مقدورنا العمل على تسهيل طرق تعليم لغة ذات تراث وغنى كالفصحى. وأخيراً لا بدّ من ذكر حقيقة مهمة جداً في هذا المجال، وهي أنّ الاختلافات بين الفصحى والعامية ليست بالمقدار الذي يترأى للبعض. فهذه الاختلافات تقع عادة في مجال الأصوات والتنظيمات الصوتية، وبسبب المفردات التي دخلت العامية من لغات متعدّدة، وهي ليست من الكثرة لتجعل من اللهجات لغات مختلفة كما يدّعي بعضهم.

٢ - اللغات الأجنبية أو اللغات الثانية

وتشتمل هذه على اللغتين الفرنسية والإنكليزية؛ فالفرنسية أو الإنكليزية تستعمل كلغة ثانية في مدارس لبنان جميعها، منذ مراحل الدراسة الأولى حتى نهاية مرحلة التعليم الجامعي. وقد ذكرنا سابقاً أنّ هاتين اللغتين تستعملان كلغات تدريس لمواد الرياضيات والطبيعيات في ما بعد مرحلة التعليم الابتدائي. ونشير هنا إلى أنّ بعض المدارس الخاصّة تدرّس موادّ الحساب والأشياء والعلوم في المرحلة الابتدائية بإحدى هاتين اللغتين. ولا بدّ لنا من أن نذكر في هذا السياق أنّ بعض المدارس التي تستعمل إحدى اللغتين كلغة ثانية بدأت بتدريس اللغة الأخرى كلغة ثالثة بدءاً بالمرحلة الابتدائية.

لا يمكننا الحديث عن أهمية اللغات الأجنبية ودورها في الحياة التربوية في لبنان دون أن نذكر بعض الوقائع التاريخية المتصلة بإدخال هذه اللغات وتوسيع رقعة انتشارها. جاءت الفرنسية والإنكليزية إلى لبنان مع البعثات الإرسالية التبشيرية التي بدأت تؤمّ البلد في أواخر القرن التاسع عشر، عاملة على نشر نفوذها من خلال تأسيس المدارس في مختلف المناطق اللبنانية^(٥). وعندما وقع لبنان تحت الانتداب الفرنسي اعتُمِدَت اللغة الفرنسية لغة رسمية إلى جانب العربية، وجُعِلَ تعليمهما إلزامياً^(٦). وبالرغم من مجيء الاستقلال واعتماد الحكومة اللبنانية اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة، فإن دور اللغة الفرنسية لم يتضاءل؛ إذ بقيت تستعمل في الدوائر الرسمية إلى جانب العربية. لكن هذا الوضع الجديد فتح المجال أمام اللغة الإنكليزية التي بدأ نفوذها يتسع مع اشتداد المنافسة بين الإرساليات الإنجيلية والإرساليات اليسوعية. وقد زاد من أهمية

هاتين اللغتين أنّ خرجي مدارس الإرساليات شكّلوا النخبة في البلد، وهم الذين استلموا مقادير البلد، إن في الحكومة، أو المجلس النيابي، أو الوظائف الهامة في القطاعين العام والخاص.

إن أهمية اللغات الأجنبية في حياة اللبنانيين تظهر اليوم في الكثير من أوجه المجتمع كما في وسائل الإعلام مثلاً؛ فهناك جرائد ومجلات باللغتين الفرنسية والإنكليزية، وهناك محطة إذاعية تبث بالفرنسية معظم الوقت وبالإنكليزية أحياناً، كما أن هناك قناة تلفزيونية باللغة الفرنسية (القنال ٩). إلى جانب ذلك نجد أنّ محطتي التلفزيون الباقيتين تعرضان مسلسلات وأفلاماً باللغة الإنكليزية تتساوى من حيث العدد مع المسلسلات والأفلام باللغة العربية، كما نجد الكثير من الأدب المسرحي والشعر يكتبه لبنانيون بالفرنسية والإنكليزية. وإن دلّ هذا على شيء فهو أنّ اللغتين الإنكليزية والفرنسية دوراً مهماً في الحياة الفكرية والثقافية في لبنان.

ولا بدّ من أن نذكر في هذا المجال أنّ اللغة الإنكليزية بدأت تنافس الفرنسية على مكان الصدارة من حيث الأهمية؛ فعلى الرغم من أنّ الفرنسية ما زالت هي اللغة الأكثر أهمية إلى جانب العربية في الدوائر الحكومية، فإنّ هناك إقبالاً شديداً على تعلم الإنكليزية بين اللبنانيين على اختلاف فئاتهم. ومردّد ذلك إلى كون الإنكليزية اللغة التجارية الأولى في العالم، واللغة التي يمكن أن يستعملها المرء أينما حلّ في عالمنا اليوم. ومن مظاهر الأهمية المتزايدة للغة الإنكليزية تزايد عدد متكلميها، وتزايد مراكز تعليمها في مختلف أنحاء لبنان. ومن أكثر البرامج التي يتطلبها اللبنانيون برامج اللغة الإنكليزية التجارية، بحيث أصبحت هذه البرامج تعتمد في أكثر مؤسسات التعليم الجامعي وغير الجامعي.

٣ - اللغات الثانوية أو لغات الأقليات

اعتبرنا في هذا البحث أنّ ما يُقرّر تصنيف لغة ما في بلد ما، رئيسة أو ثانوية، هو عدد المتكلمين بها، أي سعة انتشارها بين أبناء البلد المذكور. وحسب هذا التصنيف تأتي اللغة الأرمنية بلهجاتها المتعددة التي حملها الأرمن معهم من موطنهم الأصلي. واللغة الأرمنية تستعمل كلغة التدريس الأساسية في مدارس الطائفة الأرمنية، حيث تُدرّس العربية والإنكليزية أو الفرنسية كلغات ثانية. ويحرص اللبنانيون الأرمن حرصاً شديداً على حضارتهم ولغتهم؛ فنرى لهم جرائدهم وأدبهم في لغتهم الأم.

وتأتي اللغة الكردية ثانية بين اللغات الثانوية. لكنها مع الأسف تبقى لغة محكية بين أبناء الطائفة الكردية في لبنان؛ فليست لغة تدريس، ولا حتى لغة تُدرّس في أي من مدارس لبنان. كما أننا لا نجد أية منشورات أو أعمال أدبية تظهر بهذه اللغة. والأمر الذي يدعو لمزيد من الأسف أنّ معظم العائلات الكردية لا ترسل أبناءها إلى المدارس، وإن فعلت فللمرحلة الابتدائية فقط. ومردّد ذلك ولا شكّ هو الوضع الاقتصادي لهذه العائلات، حيث على الصغار المساعدة في كسب لقمة العيش. وكما سنرى لاحقاً فإنّ الكثير

من المسؤولية المادية والأدبية تقع على عاتق الحكومات اللبنانية التي لم تعمل على دمج الأكراد في العائلة اللبنانية دمجاً فعالاً.

III القضايا اللغوية - التربوية

وبعد أن وصفنا بالتفصيل الوضع اللغوي في لبنان ننتقل إلى عرض بعض المشاكل المرتبطة بهذا الوضع .
وحيث إننا نؤمن أنّ هذه المشاكل يمكن ويجب تداركها ، فإننا سنقدّم بعض الحلول التي نعتقد بصوابيتها ، وإن كانت تجربتها مصدر الحكم الأخير عليها . وسنعرض أولاً مشكلة الإزدواجية بين الفصحى والعامية ، ثم ننتقل إلى مشكلة لغات التدريس ، وأخيراً نطالع مشكلة التعددية اللغوية والحضارية وأبعادها .

١ - ازدواجية اللغة العربية

ليس هناك أدنى شك بأن وجود الفصحى والعامية جنباً إلى جنب في أيّ مجتمع عربيّ يسبّب الكثير من المشاكل التعليمية ، بسبب الاختلافات التركيبية والتعبيرية والصوتية بين هذين الوجهين للغة العربية ؛ فلفظة الكتاب مختلفة جداً عن اللغة التي يعرفها الصغار عند التحاقهم بالمدارس . ويزيد من عمق الفجوة بين العامية والفصحى عدم تهيئة الأهل أولادهم في المجال اللغوي ؛ إذ يعتقدون أنّ المدرسة هي المسؤولة الوحيدة عن هذه الناحية من حياة الأولاد . ولا بدّ أن نذكر هنا أنّ السنوات الإعدادية في الحضنة والروضة الأولى والثانية غير موجودة في نظام معظم المدارس اللبنانية . وإذا ما استثنينا بعض المؤسسات التعليمية الخاصة ، نجد أنّ الحضنة والروضتين إن وجدت في مدارس أخرى ، فلا هدف لها سوى إيجاد مأوى للتلامذة خلال النهار ، حيث يكون الأبوان منهماكين بأعمالهما .

وحيث إننا قد ذكرنا سابقاً أنّ العمل الأكثر فعالية للمربيّ في لبنان هو العمل على تقوية اللغة العربية الفصحى ، فإننا سنورد فيما يلي بعض المقترحات التي تكون أساساً لهذا العمل ؛ إذ إننا نجد في هذا المجال ضرورة بناء خبرات للتلاميذ الصغار باللغة الفصحى . ونعتقد أنّ أفضل ما نفعله كبداية هو القيام بأبحاث لتحديد اهتمامات التلاميذ ، حيث يمكننا بناء وحدات دراسية حول مواضيع من حياة الطفل تثير اهتمامه ورغبته بتعلم القراءة والكتابة . ويجب أن تشمل هذه الأبحاث تحديد الألفاظ والتراكيب الشائعة في كلام الأطفال ، واختيار ما هو مشترك منها مع الفصحى كأساس في الوحدات الدراسية . وسنعرض الآن لتطبيق هذه الاقتراحات في بعض نواحي عملية التعلم والتعليم .

أ) التدريب السمعي - النطقي : إنّ الأطفال العرب بحاجة إلى أن يجتربوا الفصحى سماعاً ونطقاً ، لكي تكون أليفة عندهم عندما يحين وقت تعلم القراءة . ويجب أن يتم التدريب على هذا من خلال أنشطة مسجلة يستعملها التلامذة بإشراف المعلم ، وحتى بدونه . ونضيف هنا أنّ المادة المستعملة لهذا التدريب يجب أن تكون سهلة سلسة ، وفي شكل أغاني في البداية ، ويكون موضوعها مما يرغب الأولاد ، وتراكيبها وألفاظها مما هو

معروف لديهم ، كما ذكرنا أعلاه . ومن خلال التجارب المحدودة في هذا المجال ظهر مدى فاعليتها ، كما هي الحال مع برنامج « افتح ياسمسم » الذي يُشاهد على شاشات التلفزيون في الكثير من البلاد العربية . إنّ تعميم هذه التجارب ، وفي المدارس خصوصاً ، لا بدّ أن يقربّ العربية الفصحى من أذهان أبنائها وأقنعتهم .

ب) الكتب المدرسية : على ضوء نتائج الأبحاث في مجال التراكيب والمفردات الشائعة ، وفي مجال اهتمامات التلاميذ ، وفي مجال التدريب السمعي - النطقي ، نجد أنّه لا بدّ من إعادة تقويم الكتب المستعملة في مدارسنا وتكييفها ، إن لم نقل إعادة كتابتها ، لتصبح وسائل تعليمية أكثر فعالية . ونعتقد أنّ على المسؤولين أن يستخدموا كتاباً معروفاً في حقل أدب الأطفال ليكتبوا وحدات دراسية وفق توجيهات الباحثين ، وبالتعاون مع اختصاصيين في اللغة العربية ، ومدرسين واختصاصيين في التربية . فإذا ما وُجد الكتاب المدرسي الفعّال والمدرسون المتدربون على وسائل التعليم الناجعة ، كان من السهل على الطالب أن يتعلّمك زمام لفته ، ويرتاح في استعمالها دون عقد .

جـ) تدريب الأساتذة : لا بدّ من التذكير في هذا المجال أنّ مهنة التعليم أضحت ملاذّ مَنْ لا مهنة له ؛ فقليلون هم المعلمون المتخرجون من كليات التعليم ، وبالتالي فإنّ مصائر تلامذة لبنان في أيدي أناس لا خبرة ولا مؤهلات عندهم ، وإن حسنت نواياهم . ففي مجال التربية ليست الأعمال بالنيات ، وإنما بالنيات والمعرفة . لذلك كان لا بدّ من تنشيط كليات المعلمين وتدريب وإعادة تدريب من هم في سلك التعليم في الوقت الحاضر ، لتعريفهم بالطرق التربوية الحديثة للتعليم ، ولتوجيههم التوجيه الصحيح . ونودّ أن نوّكد في هذا السياق أنّ على أساتذة مختلف المواد التي تُدرّس بالعربية أن يتدربوا على النطق العربي السليم والإعراب الصحيح كي يمكنهم مخاطبة تلاميذهم وشرح الدروس بلغة فصحى ، دون أن يؤثر ذلك على نتائجهم .

د) استخدام وسائل الإعلام : إنّ استخدام وسائل الإعلام في خدمة الفصحى يمكن أن يتخذ أسلوبين متكاملين ؛ ففي المحل الأول يمكن تعليم اللغة عن طريق التلفزيون أو الراديو بتخصيص ساعة أو ساعتين كل يوم لهذه الغاية . وبرنامج « افتح ياسمسم » مثال جيد على ذلك ؛ إذ إنه يسلي الأولاد ويعلمهم في آن معاً . وإنّ ما يفعله تلفزيون لبنان في فترة الامتحانات الرسمية من إعطاء دروس مراجعة بواسطة التلفزيون مثال آخر وإن كان يجب تعميمه على مدار السنة وإدخال عناصر تشويق إليه . وفي المحل الثاني يمكن تقوية اللغة العربية بالإكثار من المسلسلات الناطقة بالفصحى . وقد أظهرت نتائج استطلاع أجرته نهيل عويضة أنّ اللبنانيين مهما اختلفت درجات ثقافتهم لا يجدون أية صعوبة في متابعة المسلسلات بالفصحى^(٧) . إن هذه المسلسلات تجعل العربية أليفة ، كما أنّها تُدخِل ألفاظاً وتعابير قد يكون المشاهد أو السامع لم يألفها من قبل .

٢ - لغات التدريس

إنّ العربية الفصحى هي رسمياً لغة التدريس في المدارس الابتدائية لمختلف المواد ، ما عدا اللغة الأجنبية

طبعاً. لكن كما ذكرنا سابقاً، فإنّ موادّ الرياضيات والطبيعيّات في ما بعد المرحلة الابتدائية تُدرّس إما بالفرنسية أو بالإنكليزية. ونودّ أن نذكر هنا أنه ليس هناك نصّ رسمي يقضي بتدريس هذه الموادّ باللغة الأجنبية. لذلك، فإنّ مجلس البحوث التربوية كان قد بدأ قبيل الحرب الأهلية بقليل بالتخطيط لتدريس هذه الموادّ بالعربية، لكنّ الحرب قضت على هذه المحاولات؛ فما كان من مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في صيدا إلّا أن تبنت هذا المشروع، وشرعت بتطبيقه بعد إنتاج كتب الرياضيات والطبيعيّات بالعربية. وقد أتيح لكاتب هذا المقال الفرصة للتحديث مع المسؤولين عن هذا المشروع في صيدا، واستنتج - وهذا يدعو للتشجيع - أنّ الطلاب بدأوا يُظهرون على العموم تقدّماً ملحوظاً في هذه الموادّ مقارنةً بالمعدل في السنوات السابقة، حين كانت هذه الموادّ تدرّس باللغة الأجنبية. لكن هذه التجربة الفريدة إن لم تعمم ويرافقها خطوات أخرى قد تعود بالضرر؛ فأهالي الطلاب قلقون من إمكانية مواجهة أولادهم صعوبات في تحصيل قبول في الجامعات حيث التدريس يتمّ باللغات الأجنبية في معظم الاختصاصات، وصعوبات في متابعة الدروس بهذه اللغات في حال قبولهم. وتحاول مدارس المقاصد في صيدا مواجهة هذه التساؤلات كلها بإظهار النتائج الإيجابية لعملهم، وتعمل في الوقت نفسه على تخصيص ساعات إضافية تُقدّم فيها الموادّ باللغة الأجنبية.

وقد علم كاتب المقال مؤخراً أنّ جمعية المقاصد الإسلامية في بيروت قرّرت تبني التجربة في إحدى مدارسها على أمل تعميمها على المدارس جميعها لاحقاً على ضوء النتائج. لكن هذا يُبقي التجربة محدودة، ويجب تعميمها في المدارس الرسمية خصوصاً وأنّ طلاب هذه المدارس بحاجة ملحةً لخطوة كهذه؛ كونهم ضعافاً في اللغات الأجنبية. وإذا ما عمّمت هذه التجربة ضمنيّاً للغة العربية مزيداً من الاقتراب إلى نفوس متكلميها وعقولهم إذا ما استعملها حسب أصولها المعلمون والتلامذة.

ونريد أن نوّكد في هذا المضمون أنّ هدفنا تقوية اللغة العربية وليس إضعاف اللغات الأجنبية، خصوصاً وأنّ هذه اللغات ضرورية لمن يدخل الجامعة، ولكل شخص في بلد كلبنان يعتمد في اقتصاده على كونه بلد خدمات وأعمال تجارية وسياحة. لذلك، فإننا ندعو إلى إقران التعريب بالعمل على تحسين مستوى تدريس اللغات الأجنبية، وزيادة عدد الساعات المخصّصة لها في البرنامج، وإدخال مواضيع من موادّ التدريس الأخرى جميعها في برنامج القراءة باللغة الأجنبية.

٣ - التعددية اللغوية والحضارية

إنّ سياسة مدارس الإرساليات الأجنبية وخصوصاً الفرنسية، لم تكن تعليم الطلاب الذين يؤمّون هذه المدارس فقط، بل هدفت هذه المدارس أيضاً إلى خلق أنماط تفكير وناذج تصرّف شبيهة بتلك التي يتصف بها أبناء هذه الحضارات واللغات. وهكذا، فإنّ المتخرجين في هذه المدارس كانوا يشعرون بالغربة في

وطنهم؛ إذ إنّ من يشابههم في التفكير والعادات يقطنون خارج حدود بلدهم. ومع أنّ هذه الصورة لا تمثل بالضرورة الواقع دائماً، فإنها واقعية إلى حدّ بعيد، حيث إنّ فئة كبيرة من اللبنانيين من مختلف الطوائف والفئات تعتبر نفسها جزءاً من الغرب، وإن كانوا يقطنون الشرق العربي.

علاوة على ذلك نجد أنّ سياسة الحرية المطلقة التي نشأ عليها لبنان منذ استقلاله قد خلقت تشعّبات جديدة لمشكلة الولاء الوطني والانتماء؛ فلو شاء الأكراد مثلاً أن يعلّموا أبناءهم باللغة الكردية فقط، فليس هناك ما يمنعهم. ولو أراد الأرمن عدم تعليم اللغة العربية لما اعترضهم أحد. وأوليس وجود الشهادات الفرنسية دليلاً على ما نقول؟ وهكذا نرى أنّ الحكومات اللبنانية المتعاقبة لم تفعل شيئاً لخلق مقوّمات أساسية مشتركة لأيّ نظام تعليم يساعد فرضه في المدارس جميعها على بناء الشخصية الوطنية الواضحة الولاء لهذا الوطن. فبالرغم من مرور نحو أربعين عاماً من الاستقلال نجد أنّ كل فئة من اللبنانيين ما زالت تتطلع إلى الخارج بالولاء والانتماء الفكري أو الحضاري أو القومي وما إلى ذلك.

إنّ من مصلحة اللبنانيين وواجبهم التطلع إلى الداخل، وخلق هوية لبنانية وثقافة وطنية تبقى أساس تفكيرهم وتصرفهم، لا يتخلّون عنها مهما توسعت تطلعاتهم ومعارفهم وتشعّبت. ويقع العبء الأكبر في هذا على الدولة اللبنانية التي يجب أن تتحرّك وبعناية في طريق خلق المؤسسات التربوية الوطنية التي تضاهي المؤسسات الأجنبية العاملة على أرض الوطن. فالمدارس الرسمية والجامعة اللبنانية بمستواها وتجهيزها المادي والأكاديمي أدنى بكثير من المؤسسات التربوية الأجنبية والخاصة. ونودّ أن نذكر هنا أن ليس في هذا طعن بالمؤسسات الأجنبية والخاصة التي أسدت وتسدي أعظم الخدمات لهذا البلد، إنّما نريد أن نوّكد أنّ تقوية المؤسسات الوطنية الرسمية يخلق الروح الوطنية لدى من ينتسب إليها، ويمنح الفرص للكثيرين من الذين يتروكون المدرسة بسبب مستوى التعليم الحالي في هذه المؤسسات.

إنّ على الدولة اللبنانية ممارسة بعض الحزم في معاملتها المؤسسات التربوية، بحيث تفرض حدّاً أدنى من القيم المشتركة، كتعليم اللغة العربية الفصحى واستعمالها، إن لم نقل منذ البداية، فبدءاً بالمرحلة المتوسطة في تعليم أكثر المواد. ونذكر هنا أنّ الدعوات إلى التعريب محمّقة، ليس فقط على أساس تقوية الشعور بالانتماء إلى المحيط العربي، بل على أسس تربوية صرفة، كما فصلّنا سابقاً. إنّ خلق نماذج وأنماط تربوية وفكرية أصيلة في لبنان سيعطي اللبنانيين شعوراً بالاعتزاز يقلل من تطلعاتهم إلى الخارج، وفي حال تطلّعوا فللاستفادة وليس للانتماء. وأخيراً لا بد للدولة من التدخل الجادّ في برامج محو الأمية التي تبقى أكثر من ٣٠٪ من الشعب اللبناني خارج نطاق المعرفة والثقافة التي توفرها القراءة والكتابة. فهؤلاء الأميون لا يجدون ما يشدّهم إلى وطنهم بالولاء، وهم الذين يقعون فريسة للتعصّب الطائفي والعرقي والحضاري، ويكونون في العادة أدوات العنف الذي ما زال لبنان يعاني منه منذ سنوات.

IV خاتمة

عرضنا في هذا البحث الوضع اللغوي في لبنان ، متناولين بالتحليل اللغات واللهجات المتعددة المحكية فوق أرضه . كما بحثنا الانعكاسات التربوية لهذا الوضع الفريد الذي تسبّب فيه جو التسامح والحرية المطلقة الذي ساد لبنان على مرّ الزمان ، وخصوصاً بعد نيله الاستقلال . وقد ركّزنا على مشاكل الازدواجية في اللغة العربية بين الفصحى والعامية ، وتناولنا بالنقد والتحليل دور اللغات الأجنبية في النظام التربوي اللبناني ، وعرضنا الأسباب والنتائج اللغوية والتربوية للوضع السياسي والاجتماعي والطائفي والعرقي في لبنان ، وأخيراً قدّمنا ما نظنّه حلولاً للمشاكل المتصلة بالتركيبة اللغوية الحاضرة .

الحواشي

- (١) إنَّ عدم وجود أيّ إحصاء سكاني شامل يجعل من الصعب إعطاء أيّ أرقام عن عدد الناطقين باللغات المتعدّدة الموجودة في لبنان ؛ فأخر إحصاء سكاني جرى في عهد الانتداب الفرنسي في أوائل الثلاثينات ، ولكنه لم يتكرّر للخوف من الحساسيات والمشاكل التي قد تسبّبها نتائج هذا الإحصاء في مجال التركيبة الطائفية والنظام السياسي الذي قام على أساسها .
- (٢) Carles Ferguson, «Diglossia» **Word**, 15(1959), PP. 325-40
- (٣) هناك أيضاً ما يسمى لغة المثقّفين ، أي ما يستعمله المثقّون العرب للتحدث ، وهذه بالدرجة الأولى كلام بالفصحى مع بعض المظاهر الصوتية العائدة لهجاتهم المتعدّدة . وهناك أيضاً اللغة البسيطة التي تُقَطّ حركات الإعراب .
- (٤) طه حسين «مشكلة الإعراب» ، مجلة مجمع اللغة العربية ، مجلد ١١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٨٩ - ١٠٠ .
- (٥) منير بشور ، بنية النظام التربوي في لبنان ، (بيروت : المركز التربوي للبحوث والإنماء ، ١٩٧٨) ، ص ٢٢ - ٢٥ .
- (٦) المصدر ذاته ، ص ٣٠ - ٣١ .
- (٧) من بحث غير منشور كتبه نهيل عويضة كجزء من متطلبات مادة «علم اللغة الاجتماعي» الذي درّسه كاتب المقال في ربيع ١٩٨٠ ، بالجامعة الأميركية في بيروت .